رسالة إلى أخي خالد "رحمه الله"

عشت أخي موطأ الأكناف ، تألف وتؤلف ، ما خذلتنا ولا أسلمتنا ، عشت أخي عزيزا عظيما مهابا متواضعا رفيعا خفيفا ، جميل المعشر حسن الخلق ، بهيّ المحيا ، حاملا للأمانة طلق الوجه واثق الخطوة ، تكاد الأرض تفخر بحملها إياك.

عشت أخي حاملا الآلام فوق الآلام ، فقد تكسرت عليك النصال فوق النصال ،فما خفت نصلا ولا هبت طعنا.

خضت غمار الحياة و رأسك مرفوعة وقدمك راسخة رسوخ عقلك، فأنت من الراسخين الذين يعلمون تأويل الحياة ، وأنت من المجاهدين الذين فضلوا على القاعدين ،وأنت من النازلين حيث شئت والرافعين مناكبهم تزحم الشهبا .

كأني بك في برزخك ترقبنا : ماذا أحدثا بعدك؟ اطمئن وارقد هادئا فما أحدثا إلا كل خير ، ولتعلم أن مآقينا ما جفت وأن سرائرنا ما هدأت ولا عرفت جُنوبنا للنوم سبيلا منذ أن بنت عنا .وما استمتعنا بماء بارد لعلمنا أنك حُرمت منه آخر عهدك بالفانية. فهنيئا لك السلسبيل والتسنيم وحوض نبيك الكريم

أخي ما ضلت قلوبنا بعدك ولا نسيت ، فنذكرك كلما هممنا بشرب الماء من عطش وخيالك في الكأس مرسوم ، وما ذكر الموت إلا ذكرناك كأنك أول من أحدثه ولا الحياة إلا ذكرناك كأنك أول من فارقها. لكنْ عزاؤنا في مصيبتنا الأولى:

وما فقد الماضون مثل "محمد" ولا مثله حتى القيامة يفقد

هذا عام مضى وما زلت أذكر يوم رحيلك حين أتاني الناعي فجرا : أمر الله قد تم

آمنت بالله ربا خالق الموت والحياة ،خالق الملائكة ،جاعلها مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء ، آمنت بالذي أذاق كل نفس موتا ، ولو استثنى لاستثنى نبيه وخليله وحبيبه وصفيه أبا

القاسم ، الذي خُيّر بين الخلد وجوار ربه فاختار الرفيق الأعلى وجوار ربه ، وأنت لو خيرت لاخترت جوار ربك ، أما أنا :

جاورت أعدائي وجاور ربه شتان بين جواره وجواري

لأنك ما خلقتَ للفانية وما خلقتْ لك ، فمثلك ومثلها كما مثّل نبينا صلى الله عليه وسلم كمثل راكب استظل بشجرة ثم تركها ، فهي ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما .

مضيت أخي إلى ربك حاملا أفضل ما يحمل ، حملت حسن الخلق الذي يكون أثقل ما يكون في ميزان وضعه الله وجعل الشمس والقمر بحسبان وأسجد النجم والشجر ورفع السماء وأعلاها

حملت إلى ربك ثواب تربيتنا ، حين كنا صبية صغارا كزغب الحواصل لا ماء ولا شجر ، فما من خير أتانا إلا وأنت وراءه أجدك تدفعنا إليه دفعا وتدفعه إلينا دفعا ، وما من شر أخطأَنا إلا وأنت تنحّيه عنا وتبعدنا عنه .

ما كانت الدنيا يوما شغلك الشاغل وما كنتَ تؤثر نفسك علينا وما كانت رغباتك مقدمة على رغباتنا ، شأنك شأن القائل:

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

فكنت دوما صاحب اليد العليا وكنت صدر المجلس وسيد الكلمة وفارسها الذي يُقِلّ الكلام ولكن حين يتكلم يضع كل شيء في موضعه ، حلمت عمن جهل عليك وصفحت عمن أساء إليك وعفوت عمن ظلمك.

فارقت الفانية وما زال على أعناقنا فضل نُطَوَّق به ، وما زال على القريب والغريب دَيْن لك لم يقضه ولن يقضيه.

أخي عشت مهابا دونما بطش ، شجاعا دونما تهور ، متواضعا دونما ضعف :

يغضي حياء ويُغضَى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

كنت مؤمنا في السراء والضراء حاملا همّ الناس وإصلاحهم ،وهمّ الإخوة وإنجاحهم ،كريم اليد صادق اللسان سخيا في الفقر والغنى:

حالات الزمان عليك شتى وحالك واحد في كل حال

كنت لنا كما قال الشاعر:

أخ لي ما أراه الدهر إلا على العلات بسّاما جوادا

سألناه الجزيل فما تلكّأ وأعطى فوق مُنيتنا وزادا

وأحسن ثم أحسن ثم عدنا فأحسن ثم عاودنا فعادا

أخي تركت أما ثكلى ما زالت تخنقها العبرة وهي كعادتها عندما تنادي أحدنا تمر بجميع أسمائنا ثم تأتي للمقصود في الآخر ، ما زلت حين أهاتفها تنادي : بشرى ، خالد ... ثم تتوقف لتحوقل وتسترجع وتبكي ، وأنا أحوقل وأسترجع وأبكي .

الحمد له الذي أكرمنا بأخوتك ، وأكرمنا بحمل اسم أب واحد وأم واحدة ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ؛ لأننا فقدنا قبلك من انقطع عنا الوحي بموته ثم فقدنا أبا ما خُلق للفانية، مثلك تماما ، مضى ومضيت وذهب وذهبت وخُلّفنا بعدكما كجلد الأجرب.

أحبك قومك أخي لأنك منهم تطعم الجائع وتكسو العاري، تغيث الملهوف وتحمل الكَلّ ، وتمضي مسرعا في حاجة اخيك يكفي أن مسلما استجار بك فأنت الملبي ، كأنك القائل:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

فمن العباد من اختصهم الله بقضاء حوائج الناس فكنت منهم ، وزعيمهم ، شعارك :لأن أمشي في حاجة أخي أحب إليّ من أن أعتكف شهرا.

أخي سَمَّوْك خالدا فما خلدت وما بقيت ، فشأن من سماك كشأن القائل:

سميته يحيى ليحيا ولم يكن إلى رد أمر الله فيه سبيل

ولكنك خالد في قلوبنا ووجداننا ، ولو أستطيع لفديتك بنفسي:

فليتك كنتَ الحي في الناس باقيا وكنتُ أنا الميْت الذي أدرك الدهر

أخي إنه الموت ذلك السارق الذي دق شخصه الذي يصول بلا يد ويمشي بلا رجل ويجوس خلال ديارنا ويمضي بيننا ويتخلل دواخلنا.

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار

وهذه فلسفة الموت التي يعمل بها وطبقها على آل يسن ، فسلام على آل يسن ، وهذه فلسفة الإزاحة التي نفذها علينا ، فقد أخذ خالدا وأتى ببنته ، أخرج الحي من الميت ، فقد وُلدت البنت يتيمة لتكمل سلسة إعجاز بدأها والدها .

سيرة عطرة تركها ذلك الرجل ، كأن سلسلة فضائله لم تنفد ،وموسوعة خوارقه لم تنقض ، فما زال في الجعبة الكثير، هي ابنته ولدت يتيمة لا تقوى على نداء أبيها ،جاء الحي من صلب الميت ، فسبحانه مخرج الحي من الميت !!!

أخي أسطر لك هذه الكلمات وأعلم أنك لن تقرأها ولن تسمعها ، "وما أنت بمسمع من في القبور" لكن نحق الحق وننزل الناس منازلها فأنت أعطيت وما منعت وسمعت وما عصيت، وجمعت وما فرقت، ووحدت وما شتتّ، وأحببت وما كرهت ، وما قلت لا لسائل:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

كنت تعطي الاخر وتستمتع كأنك أنت الآخذ، تطعم الجائع وتجد طعم اللقمة في فيك

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

فسلام عليك -أخي الحبيب - حيث ترقد في برزخك وإلى لقاء في جنة ربك ، فنحن في شوق إليك وندعو الله أن نلقاك ونلقى الأحبة ،ولكن أخشى أن لا يجاور مقامي مقامك فأكون من الخاسرين

فأنت :

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات